الفصل الثاني
سماع القرآن الكريم

(١) تأثر أصحاب القلوب الصافية بسماع القرآن.
(٢) لماذا يكون تأثر السامعين أقوى بسماع القصائد؟

الفصل الثاني
سماع القرآن الكريم

لا شك أن سماع القرآن الكريم له مكانة خاصة ومنزلة رفيعة وقد امرنا الحق سبحانه بسماع القرآن والإنصات له في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(١). وقوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾(٢). وذلك لان من يستمع إلى تلاوة القرآن في تدبر وخشوع يؤثر في قلبه ويهديه إلى سواء السبيل في تدبر وخشوع يؤثر في قلبه ويهديه إلى سواء السبيل وهو رحمة وبركة وهو كما قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

وقد وصف الله من يستمعون القرآن ولا يتبرون آياته وما تحمله من المعاني الجليلة التي يخشع لها القلب وتطمأن النفس وتقر العين ويزداد الإيمان بانهم أصحاب لا قلوب مغلقة، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾(٤) . لأن القرآن وقع عظيم في النفوس ويزيد المؤمنين إيمانًا على إيمانهم وقد قال منه الحق تبارك وتعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾(٥).

وقد اعتبره الصوفية سماع الكُمَّل من القوم الذين يسمعون فيتبعون أحسنه، فهو سماع رباني.

وقد حدثنا الغزالي فيما سبق عن سماع الكلام على اختلاف موضوعاتها والاناشيد الدينية التي يتغنى بها على نغمات الآلات الموسيقية المباحة . يوضح موقف من مالوا إلى تحريم السماع ومن قالوا بحله مبينا التحريم ومواطن في السماع بعد أن نعرف رأيه في سماع القرآن الكريم.

---

(١) سورة الأعراف، آية ٢٠٤.

(٢) سورة المزمل ، آية ٢٠.

(٣) سورة الإسراء، آية ٩.

(٤) سورة محمد ، آية ٢٤.

(٥) سورة الحشر، آية ٢١.

(١) تأثر أصحاب القلوب الصافية بسماع القرآن الكريم:

يرى شيخنا أن الوجد الحق هو ما ينشأ من فرط حسب الله تعالى ومدى إرادة السامع وقوة شوقه إلى لقاء ربه والأحوال الصادقة يتأثرون بسماع القرآن فيحدث لهم وجد عند سماعهم كلام الله ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾[١]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾[٣].

هذا الآيات الكريمة تدل في رآي شيخنا دلالة واضحة على مدي تأثير كلام الله تعالى على عباده الخاشعين المتقين الذين تقشعر ابدانهم أجلالا وخشية من الله لما يسمعونه عن عظيم كلماته تعالي التي تهز اعماقهم وتشرح صدورهم وتأثر في ابدانهم فينفعلون بها ظاهرًا وباطنًا فهي تؤثر في القلوب والأرواح كما تؤثر في ذات الوقت في الجلود والابدان فالصوفية بلا شك يتأثرون بسماع القرآن الكريم.

وهذا النوع من السماع يقول عنه ابن القيم" هو سماع كلام رب الأرض والسماء لأسماع القصائد، وسماع الأنبياء والمرسلين لإسماع المغنين والمطربين[٤].

ويقول فيه السهروردي: " إن الحظوظ العاجلة والأقسام الدنياوية التي هي مناط الهوي ومثار الردي بمثابة الحطب الذي تزد النارية له تأججا ويزداد القلب تجرحاً، فرفضوا الدنيا وزهدوا فيها (أي الصوفية) فلما انقطعت من نار النفس احطابها فترت نيرانها وقل دخانها شهدت وقلوبهم مصادر العلوم فهيأوا مواردها بصفاء الفهم شهدوا سمعوا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[٥].

---

(١) سورة الزمر، آية ٢٣.

(٢) سورة الأنفال، آية ٢.

(٣) سورة الحشر، آية ٢١.

(٤) ابن القيم الجوزية، مدارج السالكين، طبعة أولى،ج١، ص٢٧٤

(٥) عوارف المعارف بهامش إحياء علوم الدين للغزالي سورة ق، آية ٣٧.

وقال سهل بن عبد الله التستري: " القلب رقيق تؤثر فيه الخطوات المذمومة واثر القليل عليه كثير، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾[١]. فالقلب ممال لا يفتر والنفس يقظانه لا ترقد فإن العبد مستمعًا إلى الله تعالى وإلا فهو مستمع إلى الشيطان والنفس"[٢]. وهذا يعني آن سماع القرآن وتواجدهم لسماعه يرد على ما يتعجب، أن الصوفية ينفعلون بسماع الغناء وهو كلام الشعراء ويحدث لهم به كانوا صادقين لكن كلام الله أولى بأثارة وجدهم من الغناء، فدل ذلك على أن أحوالهم باطلة وانها من غرور الشيطان.

ومن ذلك ما قاله ابن الجوزي البغدادي حيث يقول: "وقد نشب السماع بقلوب خلق منهم فآثروه على قراءة القرآن ورقت قلوبهم عنده بما لا ترق عند القران وما ذاك إلا لتمكن هوى باطن تمكن منه وغلبة طبع، وهم يظنون غير هذا[٣].

ويرد الغزالي على ذلك بقوله بأن الذي يهيج شوقه بسماع القرآن فهو حب الخلق وعشق المخلوق فيلزم من محب الله المشتاق إلى مطالعة جماله وجلاله صاحب الوجد الحق أن يحرك سماع القرآن شوقه، بل على حد تعبير الغزالي يهيج هذا الشوق ويشعل ناره.

وفي رأي شيخنا أن الوجد والخشوع عنده سماع القرآن هو وجد من قبيل الأحوال وان لم يكن من قبيل المكاشفات والتنبيهات ويستشهد على صحة رأيه هذا بقول

---

(١) سورة الزخرف، آية ٣٦.

(٢) عوارف المعارف للسهروردي بهامش إحياء علوم الدين للغزالي ،ج١،ص٢٣٦.

(٣) انظر تلبيس إبليس ،ص٢٤٦ ،٢٤٧، (١) يقول ابن الجوزي البغدادي: أن أبا نصر السراج الطوسي حكى عن أبي الحسن الدارج أنه قصد يوسف بن الحسين الرازي من بغداد فلما دخل الراي سال من منزله وكان كل ما يسأله عليه يقول له: ماذا تفعل بذلك الزنديق حتى ضيقوا صدره وعزم على الانصراف وبات ليلتها في المسجد المحراب وبين مصحف يقرا فيه فسلم عليه وطلب منه الشيخ ان يقول شيئًا فقال: رأيتك تبني دائما في قطيعتي .ولو كنت ذا حرم لهدمت ما تبني فاطبق المصحف وبكي حتى ابتلت لحيته قال: يبني تلوم أهل الري على قولهم يوسف بن الحسين زنديق ومن وقت الصلاة هو ذا اقرا القران لم تفطر من عيني قطرة وقد قامت على القيامة بهذا البيت، المرجع السابق، ص٢٤٨.

الرسول (صلى الله عليه وسلم) " زينوا القرآن بصواتكم"[١]. أي أن قارئ القرآن يجب أن يكون حسن الصوت حتى لا ينفر منه السامعين وقوله (صلى الله عليه وسلم) عن أبي موسى الأشعري: " لقد أُوتي مزمارًا من مزامير آل داود عليه السلام"[٢].

ولا شك أن حسن الصوت وخشوعه عند قراءة القرآن تبعث على الإنصات فإذا أنصت المستمع وكان قوي الإيمان بعثه ذلك كما يرى شيخنا من قول الرسول (صلى الله عليه وسلم): " شيبتني هود وأخواتها"[٣].

وهذا الحديث يدل على أن القرآن الكريم يبعث على الوجد ويؤدي إلى الخوف من الله والحزن على التقصير في حقه والخوف والحزن يؤديان إلى الثيب.

ويورد الغزالي أدلة أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد حدث له وجد من سماع القرآن الكريم ومن ذلك ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه من انه قرا على رسول الله (صلي الله عليه وسلم) سورة النساء فلما انتهى إلى قوله: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾[٤] قال: حسبك وكانت عيناه تزرفان الدموع.

وقد روي أيضًا أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قرأ هذه الآية عنده في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ ﴾[٥]، فبكي[٦].

وروي أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قرأ قوله تعالى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾[٧]. فبكي، ويقول الإمام الغزالي انه صلي الله عليه وسلم إذا مر بآية من آيات

(١) الدارمي صلاة ١٧١ فضائل القران ٣٤.

(٢) سبق تخرجه.

(٣) رواه الترمذي من حديث ابي حنيفة وله الحكم من حديث ابن عباس، قال الترمذي حسن ، وقال الحكم صحيح على شرط البخاري.

(٤) سورة النساء، آية ٤١.

(٥) سورة المزمل ، الآيات ١٢-١٣.

(٦) حديث أنه قرئ عند الرسول (إن لدينا أنكالاً)، ذكره ابن عدي في الكامل والبيقي في الشعب من طريقه من حديث أبي حرب ابن أبي الأسود مرسلاً انظر الغزالي،ج٢ ص٢٩٤.

(٧) سورة المائدة، آية ١١٨.

الرحمة دعا ربه واستبشر[١]. وفي رأي الغزالي أن الاستبشار وجد، وأن الرسول (ص) كان يحدث له حال من البسط والبهجة والاستبشار عندما يسمع آيات القرآن التي ذكر فيها رحمة الله وعفوه تعالى.

والغزالي يرى أن الحق سبحانه وتعالى في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[٢].

وينتهي الغزالي من تلك الأمثلة وغيرها إلى الرسول (صلى الله عليه والسلام) كان يحدث له وجد عند سماع القرآن الكريم وكذلك الصحابة رضوان الله عليه والتابعين بإحسان كانوا أيضًا فيما يرى الغزالي يتواجدون عند سماع القرآن ومنهم من بكي ومنهم من غشي إليه ومنهم من مات في غشيته، وروي أن زرارة بن أوفى وكان من التابعين كان يؤم الناس بالرقة فقرأ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾﴾[٣]. فمعق ومات في محرابه رحمه الله[٤].

ويروي الغزالي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع رجلا يقرأ قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾﴾[٥]. وخر مغشيا عليه فحمل فلم يزل مريضاً في بيته شهراً[٦].

ويذهب إمامنا إلى أن الإمام الشافعي رحمة الله سمع قارئا يقرأ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾[٧]. فغشي عليه من شدة الوجد.

والحق أن الإمام الغزالي يسوق الكثير من هذه الأمثلة التي يستدل على ان الصحابة والتابعين كان يحدث لهم وجد من سماع القرآن الكريم[٨].

---

(١) انظر المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٢) سورة المائدة، آية ٨٣.

(٣) سورة المدثر، آية ٨.

(٤) إحياء علوم الدين، ج٢،ص٢٩٤.

(٥) سورة الطور، آية ٧.

(٦) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٧) سورة المرسلات، الآيات ٣٥-٣٦.

(٨) انظر إحياء علوم الدين ،ج٢،٢٩٣ وما بعدها

ويوضح إمامنا أثر سماع القرآن الكريم على الصوفية وما يحدثه سماع كلام الله فيهم من وجد فيروي أن الشبلي كان في مسجده ليلة من رمضان وهو يصلي خلف إمام فقرأ الإمام قول الحق تبارك وتعالي: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾[١] فزعق "الشبلي" زعقة ظن الناس أنه قد طارت روحه واحمر وجهه وارتعدت فرائصه فكان يقول بمثل هذا يخاطب الأحباب ويردد ذلك مرارًا[٢].

كما روى الجنيد أنه دخل على سري السقطي فرأيت بين يديه رجلاً قد غشي عليه فقال لي هذا الرجل قد سمع آية من القرآن فغشي عليه فقلت اقرءوا تلك الآية بعينها فقلت رأيت يعقوب عليه السلام . وكان عماه من أجل الحق ما أبصر بمخلوق: فاستحسن ذلك وأشار إلى قول الشاعر:

وكـــأس شـــربت علـــى لـــذه وأخـــرى تـــداويت منهـــا بهـــا[٣]

ويفيض الغزالي في ذكر ما روي عن تواجد كبار الصوفية عند سماع القرآن الكريم[٤]. فأصحاب القلوب المطمئنة الصافية لا يخلون عن وجد عند سماع القران.

ويذهب الإمام الغزالي إلى أن يسمع القرآن ولا يؤثر فيه فمثله ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾[٥] . قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾[٦].

وقال الشبلي: موعظة القرآن لمن قلبه حاضر مع الله لا يغفل عنه طرفة عين[٧].

وقد ذهب إلى مثل هذا القول الصوفي يحيي بن معاذ الرازي حيث قال " القلب قلبان" قلب قد احتشي بأشغال الدنيا حتى إذا حضر أمر من أمور الآخرة لا يدري

---

(١) سورة الإسراء، آية ٨٦.

(٢) الغزالي، الإحياء ، ج٢، ص٢٩٤.

(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٤) لمعرفة المزيد من تلك الروايات انظر إحياء علوم الدين، ج٢، ص٢٩٥،٢٩٤.

(٥) سورة البقرة، آية ١٧١.

(٦) سورة ق، آية ٣٧.

(٧) السهروردي، عوارف المعارف على هامش إحياء علوم الدين للغزالي، ج١، ص٢٣٦.

صاحبه ما يصنع من شغل قلبه بالدنيا وقلب قد احتشي بأحوال الآخرة لا يدري صاحبه ماذا يصنه لذهاب قلبه في الاخرة[١].

وقال السهروردي:" أصحاب التمكين يجمع لهم بين المشاهدة والفهم ، فموضوع الفهم محل المحادثة والمكالمة وهو سمع القلب، وموضوع المشاهدة بصر القلب، وللسمع حكمة وفائدة، وللبصر حكمة وفائدة، فمنم هو في سكر الحال يغيب سمعه في بصره، ومن هو في حال الصحو والتمكين لا يغيب سمعه في بصره، لتملكه ناصية الحال ويفهم بالوعاء الوجودي المستعد لفهم المقال لأن الفهم مورد الإلهام، والسماع والإلهام يستدعيان وعاء وجودياً وهذا الوجود موهوب منشأ إنشاء ثانياً للمتمكن في مقام الصحو وهو غير الوجود الذي يتلاشى عند لمعان نور المشاهدة لمن جاز على مصر الفناء إلى مقر البقاء [٢].

وقد ذكر القرطبي إن سمع رسول الله (ص) واصحابه إنما كان القرآن فاياه يتدارسون وفيه يتفاوضون ومعاينة يتفهمون ويستعذبونه في صلاتهم، ويأنسون به في خلواتهم ويتمثلون به في مجاولاتهم، ويلجؤن إليه في جميع حالاتهم فإذا سمعوه أنصتوا كما أمروا وإذا قرأوه تدبروا أو اعتبروا فأحلوا جلاله، وحرموا حرامة واقتبسوا احكامه يتخلقون بأخلاقه ويعملون على وفاقه علماً منهم بأنه طريق النجاة ونيل الدرجات وتلاوته أفضل العبادات، وأجل القربات فإنه حبل الله المتين، والصراط المستقيم، الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تشبع منه العلماء. من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه دعا إلى الصراط المستقيم [٣].

ومن ذلك يتضح أن القرآن هو خير كلام يسمع لأنه كلام الله ووجد الصوفية في سماعه باعثاً على الوجود التأمل.

---

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٢) السهروردي: عوارف المعارف على هامش الأحياء ، ج ١ ، ص ٢٣٨

(٣) انظر. محمد أبو الهدى العبادي المكنى بأبي البركات ، روض الأسماع في أحكام الذكر والسمع ، ص ٦٣.

نخلص من ذلك إلى أن الغزالي وغيره من الصوفية يذهب إلى أن سماع القرآن الكريم يبعث على الوجد. وينتقد ابن الجوزي البغدادي هذا القول وينكر على من يسمع القرآن ويعمق أو يزعق ويروي العديد من الأقوال التي أسندها إلى اصاحبها والتي يذهبون فيها إلى إنكار الوجد عن طريق سماع القرآن الكريم ومن أقواله في ذلك "اعلم وفقك الله أن قلوب الصحابة كانت أصفى القلوب وما كانوا يزيدون عند الوجد عن البكاء والخشوع فجرى من بعض غرائبهم نحو ما أنكرناه فبالغ رسول الله (ص) في الإنكار عليه" [١] .

عن أنس قال: وعظ رسول الله (ص) يوماً فإذا رجل قد صفق فقا النبي (ص) من ذا المبلس علينا ديننا إذا كان صادقاً فقد شهر نفسه وإن كان كاذباً فمحقه الله" [٢]

ونقل عن مالك ابن أنس أيضاً أنه ذكر عنده هؤلاء الذين يصعقون عند القراءة (أي قراءة القرآن) فقال أنس: لقد رأينا ووعظنا رسول الله (ص) ذات يوم حتى سمعنا للقوم حنيناً حين أخذتهم الموعظة وما سقط منه أحد" [٣]

ويقول ابن الجوزي البغدادي: "هذا حديث العرباض بن ساريه: وعظنا رسول الله (ص) موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب. قال أبو بكر الآجري ولم يقل صرخنا ولا ضربنا صدورنا كما يفعل الكثير من الجهال الذين يتلاعب بهم الشيطان"[٤].

وروي عن أنس أيضاً أن قتادة قال له: "أن أناساً إذا قرئ عليهم القرآن يصعقون فقال: ذلك فعل الخوارج [٥].

ويكثر ابن الجوزي البغدادي من ذكر مثل هذه الروايات التي ينكر فيها أصحابها على من يتواجد عند سمع القرآن بأن يزعق أو يصعق أو يغشى عليه أو يحدث أي شيء

---

(١) ابن الجوزي البغدادي ، تلبيس إبليس ، ص ٢٥٢.

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٤) انظر : تلبيس إبليس ، ص ٢٥٣.

(٥) انظر باب التغني بالقرآن . الدرامي صلاة ، ص ١٧١ ، وفضائل القرآن ، ص ٣٤.

من هذا القبيل ويقول أن الرسول والصحابة على صفاء قلوبهم كانوا لا يذيدون في وجودهم عند سماع القرآن على البكاء وأن تقشعر جلودهم [١].

والغزالي يعتبر سماع القرآن الكريم هو سماع الكُمَّل من أهل التصوف أما المريد المبتدئ فإن الغناء يكون أشد تهييجاً لوجده واشارة لقلبه وهذا ما سنتبينه من عرض وجهة نظره في تعليل ذلك.

(١) تلبيس إبليس ، ص ٢٥٠ إلى ٢٦٠.

(٢) لماذا يكون تأثير السامعين أقوى بسماع القصائد ؟

يوضح لنا الغزالي الأسباب التي من أجلها يعتبر الغناء أشد تهييجاً للوجد من القرآن الكريم فيقول "فإن قلت فإن كان سماع القرآن الكريم مفيداً للوجد فما بالهم (أي الصوفية) يجتمعون على سماع الغناء من القوالين دون القارئين ؟ فكان ينبغي أن يكون اجتماعهم وتواجدهم في حلق القرآن الكريم لا خلق المغنيين. وكان ينبغي ان يطلب عند كل اجتماع في كل دعوة قارئ لا قوال. فإن كلام الله تعالى أفضل من الغناء لا محالة. فاعلم أن الغناء أشد تهييجاً للوجد من القرآن من سبعة أوجه" [١].

ويبدأ الغزالي في سرد هذه الأوجه كما يلي :

الوجه الأولى :

يذهب إلى أن آيات القرآن الكريم متنوعة ومتعددة والأغراض وليست جميعها تتناسب مع حال السامع بحيث تثير وجده فمن الآيات ما يتحدث عن الموازين والمواريث أو الطلاق أو الحدود وهذه الآيات الكريمة مع عظمتها وجلال قدرتها إذا قرأت في حضرة السامعين على اختلاف احوالهم فإنها لا تتناسب معهم فمنهم التائب النادم ومنهم المشتاق العاشق ومنهم الحزين. فلا يحرك ما في القلب إلا ما يناسبه. وأقوال القوال عادة تكون مناسبة لتلك الأحوال وبذلك يكون لها تأثيراً قوياً على قولب السامعين. وإليك قول الغزالي في ذلك: "ليس جميع آيات القرآن تتناسب حال المستمع ولا تصلح لفهمه وتنزيله على ما هو ملابس له فمن استولى عليه حزن أو شوق أو ندم فمن اين يناسب حاله قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾[٣] وكذلك جميع الآيات التي فيها بيان أحكام الميراث والطلاق والحدود وغيرها. وإنما المحرك لما في القلب ما

---

(١) إحياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩٥.

(٢) سورة النساء ، آية ١١.

(٣) سورة النور ، آية ٤.

يناسبه والابيات إنما يفعلها الشعراء اعرابا بها عن أحوال القلوب فلا يحتاج في فهم الحال منها إلى تكلف"[١].

وهذا لا يعني عن إمامنا أن الآيات القرآنية السالفة الذكر لا تثير وجد السامع على الإطلاق فهي قد تثير وجد من يستولي عليه حالة غالبة قاهرة لم تبقى فيه متسعاً لغيرها على أن يكون لديه يقظة وذكاء ثاقب يتفطن به للمعاني البعيدة من الألفاظ الواردة في الآيات. فيحدث له الوجد عند سماعها مثل قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾[٢] فقد تذكره هذه الآية الكريمة بحالة الموت عند الوصية وإن كل إنسان لابد أن يخلف ماله وولده وهما محبوباه في الدنيا فيترك أحد المحبوبين للثاني ويهجرهما جميعاً فيغلب عليه الخوف والجزع. أو يسمع هذه الآية عينها فتثير وجده عندما يخطر له رحمة الله على عباده وشفقته بأن تولى تقسيم مواريثهم بنفسه سبحانه وتعالى نظراً لهم في حياتهم وموتهم، فيقول: إذا نظر لأولادنا بعد موتنا، فلاشك بأنه ينظر لنا، فيهيج منه حال الرجاء ويورثه ذلك استبشاراً وسروراً. أو يخطر له من قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾[٣]. تفضيل الذكر على الأنثى وإن الفضل في الآخرة لرجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله[٤].

وأمثال هذه الآيات قد تحرك الوجد غير أن من يتحرك وجده يمثل هذه الآيات لابد في رأي إمامنا أن يتوافر فيه وصفان: أحدهما: حالة مستفرقة قاهرة. والآخر: تفطن بليغ وتيقظ بالغ كامل للتنبيه بالأمور الغريبة على المعاني البعيدة.

ويرى الغزالي أن هذه الأمور عزيزة ولأجل ذلك بفزع السامع إلى الغناء الذي هو ألفاظ مناسبة للأحوال فتثير الوجد [٥].

---

(١) إحياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩ .

(٢) سورة النساء ، آية ١١ .

(٣) سورة النساء ، آية ١١ .

(٤) إحياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩ .

(٥) انظر إحياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ .

وقد قال الجنيد في سماع القرآن وسماع الألحان ما يشبه ذلك فقد ذهب الجنيد إلى أن الأشعار من صنع الإنسان وضعها حسب أحواله المتعددة ولذلك فإن للنفس فيها حظ أما القرآن فهو حق نزل من عند حق، لا يليق بصفات الخلق لذلك فهو لا يطرب في الدنيا وإذا سمعوه في الآخرة من قائله اطربهم ولذلك لا يطرب له إلا العلماء المقربون(١).

وهذا يتفق مع رأي الصوفية وهو أن خامة القوم هم الذين يتأثرون بالقرآن لا بسماع الألحان ومع ذلك ما قاله ابن القيم الجوزية من أن سماع القرآن هو سماع الأنبياء والمرسلين لا سماع المغنيين والمطربين(٢).

ويؤيد الغزالي ما ذهب إليه بما حدث لأبي الحسن النوري عندما كان في مجلس مع جماعة فجرت بينهم مناقشة حول مسألة في العلم وأبو الحسن كان ساكناً ثم رفع رأسه وأنشد:

رب ورقاء هتوف في الضحى ذات شجو صدحت في فنن
ذكرت ألفا ودهرا صالحا وبكت حزنا فهاجت حزني
فبكائي ربما أرقها وبكاها ربما أرقني
ولقد أشكو فما أفهمها ولقد تشكو فما تفهمني
غير أني بالجوي أعرفها وهي أيضاً بالجوي تعرفني

فعندما سمع القوم هذه الأبيات قاموا وتواجدوا عليها وأثارت وجدانهم بينما لم يحدث لهم ذلك من العلم الذي خاضوا فيه وإن كان العلم جداً وحقاً(٣).

الوجه الثاني:

---

(١) محمد بن أبي الهدى المكنى بأبي البركات ، روض الأسماع في أحكام الذكر والسماع ، ص ٦٤.

(٢) ابن القيم ، مدارج السالكين ، طبعة أولى ، ج ١ ، ص ٢٧٤ .

(٣) الغزالي ، الإحياء ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ .

وفيه يدلي الغزالي بسبب أخر يجعل السماع عن طريق القصائد والأغاني أشد استثارة للوجد من سماع القرآن الكريم وذلك أن القرآن محفوظ للكثيرين من الناس ويسمعون دائماً، ويتكرر سماعه فالفته الاسماع والقلوب وهذه الألفة جعلته أقل تأثيراً في استثارة الوجد. فالإنسان عندما يسمع شيئاً جديداً يثير وجده وينفعل به غير أن هذا الشيء إذا تكرر سماعه مرات ومرات الفته الاسماع والقلوب وصار تأثيره أضعف في كل مرة والقرآن هو هو دائماً لا يتجدد سوره وآياته وإنما يظل كما هو دون تغيير أو تبديل آياته محفوظة ومألوفة للأسماع لكثرة ترددها أما القصائد التي ينشدها القوالون يمكن أن تحمل في كل مرة كلمات جديدة تعبر عن نفس المعنى وفي كل مرة يكون لها أثر متجدد في القلوب فتتواجد لسماعها. ويقول الغزالي في ذلك ما نصه "إن القرآن محفوظ للأكثيرين ومتكرر على الأسماع والقلوب وكل ما سمع أولاً، عظم أثره في القلوب وفي الكرة الثانية، يضعف أثره وفي الثالثة، يكاد يسقط أثره. ولو كلف صاحب الوجد الغالب أن يحضر وجده على بيت واحد على الدوام في مرات متقاربة في الزمان في يوم أو أسبوع لم يمكنه ولو أبدل بيت أخر لتجدد له أثر في قلبه وإن كان معرباً عن عين ذلك المعنى ولكن كون النظم واللفظ غريباً في كل وقت ودعوة، فإن القرآن محصور لا يمكن الزيادة عليه وكله محفوظ متكرر"[١].

وأشار الغزالي إلى قول الصديق رضي الله عنه عندما رأى الأعراب يقدمون فيستمعون القرآن ويبكون فقال "كنا كما كنتم ولكن قست قلوبنا" ويقول الغزالي "ولا تظن أن قلب الصديق رضي الله عنه كان أقسى من قلوب الأجلاف من العرب أو كان أخلى من حب الله تعالى وحب كلامه من قلوبهم ولكن التكرار على قلبه اقتضى المرون عليه وقلة التأثر به لما حصل له من الأنس بكثرة استماعه إذ يحال في العادات أن يسمع السامع آية لم يسمعها من قبل فيبكي ثم يداوم على البكاء عليها عشرين سنة ثم يرددها ويبكي"[٢].

---

(١) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

ولا شك أن كل فريد جديد وكل جديد له لذة وله موقع من النفس وتأثير في القلب ويرى الغزالي أن تلك هي الحكمة التي من أجلها منع عمر بن الخطاب رضي الله عنه الناس من كثرة الطواف بالكعبة وقال: قد خشيت أن يتهاون الناس بهذا البيت أي يأنسوا به[١] .

ولا أدل على ذلك من أن من يقدم حاجاً ويرى البيت الحرام يبكي لرؤيته ويحدث ذلك في قلبه خشية وفي نفسه تأثيراً عظيماً وربما غشي عليه لفرط تأثيره، غير أنه إذا أقام بمكة وألف رؤية البيت لا يحدث له نفس الانفعال الذي حدث عند رؤيته لأول مرة[٢].

وهذا كما يرى إمامنا شأن المغني الذي يستطيع أن يتغنى بأبيات غريبة على الأسماع في كل مرة يقول فيها. ولكن مقرئ القرآن لا يقدر أن يأتي بأبيات قرآنية غريبة في كل وقت[٣].

الوجه الثالث :

كما يذهب الغزالي إلى أن الشعر كلام موزون وله موسيقى خاصة إذا تغنى به المغني بألحان جميلة وصوت طيب كان لذلك تأثيره العظيم في النفس فيؤدي إلى وجد السامع ويكون تأثيره قوياً.

والقرآن يقرأ بصوت طيب ولكنه غير موزون لأن الوزن يوجد في الشعر دون الآيات. وبذلك تكون درجة تأثر السامع بالأبيات الموزونة وشدة طربه بهاء ويقول إمامنا في ذلك ما نصه "إن لوزن الكلام بذوق الشعر تأثيراً في النفس فليس الصوت والوزن الطيب كالصوت الطيب الذي ليس بموزون وإنما يوجد الوزن في الشعر دون الآيات، ولو حذف المغني البيت الذي ينشده أو لحن فيه أو مال على حد تلك الطريقة

---

(١) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

في اللحن لأضطرب قلب المستمع وبطل وجده وسماعه ونفر طبعه لعدم المناسبة، وإذا نفر الطبع اضطرب القلب وتشوش، فالوزن إذن مؤثر فلذلك طاب الشعر[١].

الوجه الرابع :

إن الغناء يستخدم فيه ألحان مختلفة أو طرق متعددة للأداء والتي يكون منها مد المقصور، وقصر الممدود والوقف والقطع والوصل وغيرها من النغمات وطريقة الأداء التي يستوجبها اللحن، حتى يكون مؤثراً في النفوس. أما القرآن الكريم فلا يجوز لقارئه أن يفعل ذلك، فهو ملتزم بأحكام التلاوة والتراتيل، وعلى ذلك يفتقد السامع أحد المؤثرات التي تثير وجده وهو الألحان والنغمات العذبة. ويقول الغزالي ما نصه "إن الشعر الموزون يختلف تأثيره في النفس بالألحان التي تسمى الطرق والدستانات، وإنما اختلاف تلك بمد المقصور، وقصر الممدود، والوقوف في أثناء الكلمات والقطع والوصل في بعضها، وهذا التصرف جائز في الشعر ولا يجوز في القرآن إلا التلاوة كما أنزل فقصره ومده والوقف والوصل والقطع فيه على خلاف ما تقتفيه التلاوة حرام أو مكروه. وإذا رتل القرآن كما أنزل سقط عنه الأثر الذي سببه وزن الألحان[٢].

الوجه الخامس :

إن الأغاني الملحنة الموزونة تغنى على نغمات الآلات الموسيقية التي تساعد بدورها في جعلها مؤثرة مما يساعد على استثارة الوجد الذي لا يستثار إلا بدافع قوي فالكلام الموزون مع اللحن والصوت الحسن ومصاحبة الآلات الموسيقية له فإنها مجتمعة يكون لها قوة تأثير والقرآن الكريم لا يمكن أن يصاحب بمثل هذه القرائن لأن كلام الله أجل وأعظم من أن يمزج بهذا اللهو. فلا يجوز أن يختلط الحق المحض بما هو لهو عند العامة. فينبغي أن يكون للقرآن وقاره وجلاله. ولذلك فإن الصوفية يستخدمون في مجالس السماع الانشاد الديني مصحوباً بالآلات الموسيقية كالدف وغيرها .

---

(١) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ .

(٢) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ .

أما القرآن فله حرمة فلا يجوز أن يقرأ إلا من إنسان طاهر في مجلس ساكن يسوده الخشوع والهدوء ولا يفي بحق حرمة القرآن إلا المراقبون لأحوالهم، ولذلك يستحسن الغناء في مجالس السماع لأنه لا يستحق كل هذه المراقبة والمراعاة ولأنه يثير أصحاب الوجد الضعيف.

ويدعم الغزالي قوله بما وقع من الرسول (ص) عندما دخل بيت "الربيع بنت معوذ" وكان عندما جوار يغنين فسمع احدهن تقول "وفينا نبي يعلم ما في غد" على وجه الغناء فقال (ص) "دعي هذا وقولي ما كنت تقولين" وهذه شهادة بالنبوة فزجرها عنها وردها إلى الغناء الذي هو لهو لأن هذا جد محص فلا يقرن بصورة اللهو. فإذا يتعذر بسببه تقوية الأسباب التي بها يصير السماع محركاً للقلب في الاحترام والعدول عن شهادة النبوة إلى الغناء"[1].

الوجه السادس :

إن المعنى أو المنشد قد ينشد بيتاً لا يوافق حال السامع فلا يتقبله ويكره أن يسمعه وينهاه عنه ويطلب منه أن يقول غيره، فإن كان حال تطلب ما يناسبها من الأقوال ولو قرئ القرآن في مجالس السماع وقرأ المقرئ آية أو آيات كريمة لا توافق حال السامع فلا يجوز أن يكره سماعها ويطلب من المقرئ غيرها مما يوافق حاله ولتجنب الوقوع في مثل هذا استحسن السماع عن طريق الغناء حيث ان كلام الشاعر يجوز تنزيله على غير مراده أما كلام الله فيجب توقيره وصيانته ولا يجوز إلا على ما أردا الله وليس ما أراد الإنسان. ويقول الغزالي ما نصه: "لا يؤمن أن لا يوافق المقروء الحال وتكرهه النفس فيتعرض به لخطر كراهة كلام الله تعالى من حيث لا يجد سبيلاً إلى دفعه. فالاحتراز عن خطر ذلك حزم بالغ، وحتم واجب إذ لا يجد الخلاص عنه إلا بتنزيله على غير مراده، ففيه خطر الكراهة، أو خطر التأويل والخطأ لموافقة الحال فيجب توقير كلام الله تعالى

---

(١) الغزالي ، الإحياء ، ج ٢ ، ص ٢٩٧ .

وصيانته عن ذلك. وهذا ما ينقدح لي في علل انصراف الشيوخ إلى سماع الغناء عن سماع القرآن[١].

الوجه السابع :

وهذه الحجة قد ذكرها أبو نصر السراج الطوسي واستند إليها الغزالي وأضافها إلى حججه السابقة وهي أن القرآن الكريم كلام الله وصفة من صفاته وهو حق لا تطيقه البشرية لأنه غير مخلوق فلا تطيقه الصفات المخلوقة ولو كشف للقلوب ذرة من معناه وهيبته لدهشت وتصدعت أما الألحان الطيبة فهي مناسبة للطابع الإنسانية موافقة لحظوظ البشرية فإذا اجتمعت الألحان الجميلة بالأصوات العذبة بالشعر وما يحمله من الإشارات واللطائف انسجم بعضها مع البعض الأخر وكانت أقرب إلى الحظوظ وأخف على القلوب لمشاكلة المخلوق للمخلوق. فكون الإنسان يتنعم بالنغمات الشجية والأصوات الطيبة والألحان فعليه أن يستخدمها في سماعه لاصطناع الوجد.

ويقول إمامنا ما نصه: "وهنا وجه سابع ذكره أبو نصر السراج الطوسي .... فقال القرآن كلام الله وصفة من صفاته وهو حق لا تطيقه البشرية لأنه غير مخلوق فلا تطيقه الصفات المخلوقة ولو كشف للقلوب ذرة من معناه وهيبته لدهشت وتصدعت وتحيزت والألحان الطيبة مناسبة للطباع ونسبتها نسبة الحظوظ لا نسبة الحقوق. والشعر نسبته نسبة الحظوظ. فإذا علقت الألحان والأصوات بما في الأبيات من الإشارات واللطائف شاكل بعضها بعضاً وكان أقرب إلى الحظوظ. وأخف على القلوب لمشاكلة المخلوق للمخلوق"[٢].

والشعر والغناء يتفق مع طابع السامعين ويؤثر في قلوبهم لأنه مخلوق مثلهم فهو يناسبهم. وأما القرآن فنظمه خارج من أساليب الكلام ومناهجه وهو كذلك معجز لا يدخل في قوة البشر لعدم مشاكلته لطبعهم وهذا الرأي قد ذهب إليه أيضاً الجنيد وقد سبق ذكره.

---

(١) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٢) الغزالي ، الإحياء ، ج ٢ ، ص ٢٩٧ .

وتعليقاً على تلك الحجج التي أوردها الغزالي في علة سماع الصوفية وتواجدهم على القصائد والألحان أكثر من تواجدهم لسماع القرآن أقول أن للصوفية في السماع مقامات قد سبق الحديث عنها فمنهم من يسمع بحاله وهذا يسقط ما يسمع على أحوال نفسه المتعددة من خوف أو أنس أو رجاء أو شوق .. إلى أخر ما ذكرنا من تلك الأحوال والسامع في هذا المقام يتأثر بسماع الألحان والقصائد فهي تصلح له وتناسب مقامه ودرجته وهو في تلك الدرجة قد يجد فيها ضالته المنشودة فيستجب لها ويتأثر بها ايما تأثير فهي ترقق قلبه وتبعث فيه الخشوع والخوف من الله وتزهده في الدنيا وتذكره بالأرخة وتقوي عزيمته ولا بأس في ذلك فما يساعد على تحقيق الخير فهو خير.

وهناك السماع الرباني وهو سماع الكُمَّل من القوم والذي قلنا أن أصحابه لا تؤثر فيهم النغمات وإنما سماعهم من الله وفي الله والله فهؤلاء في مقام أعلى ودرجة تعدت أحوال النفس وحظوظها فهم يفضلون سماع القرآن على سماع الألحان التي هي غالباً سماع السالك في بداية الطريق أما الكُمَّل من القوم فلا يحتاجون إليها في إثارة وجدهم فهم يتدبرون القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم. ولذلك قال الجنيد: "كل مريد رأيته يميل إلى السماع (ويعني سماع الغناء) فأعلم أن فيه باقية من البطالة"[١].

أو كما يقول الصوفية السماع لقوم كالغذاء ولقوم كالدواء ولقوم كالداء ولقوم كالمروحة[٢].

هذا ولاشك أن الصوفية على اختلاف مقاماتهم سواء من كان منهم في بداية الطريق أو من بلغ منهم المقامات العالية والدرجات الرفيعة في القرب إلى الله يحبون سماع القرآن ويقرأون ما تيسر منه وينصتون إليه لأنه يهدي للتي هي أقوم ويتدبرونه لأنه قلوبهم عامرة بحب الله وحب كلماته الصادقة ويعرفون له قدرة وإنما يستخدمون السماع بالغناء ترويحاً لقلوبهم وارواحهم من كثرة الجد واجلالاً وتعظيماً للقرآن من أن بفهمه أصحاب الأحوال على غير معناه.

---

(١) السهروردي ، آداب المريدين ، ص ١٠٧ .

(٢) السهروردي ، آداب المريدين ، ص ١١٠ .